Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 15-16:4-1 (1980-81

القرن الخامس عشر الهجرى الجديد

و أضواء على الحقائق التاريخية

انتقينا هذا الخطاب المعرب لسماحة الشيخ ابى الحسن على الندوى من مجلة البعث، ان فيه لمحات من الحقائق التاريخية. ولكن مفعوله المجموع يشجع المعنويات وليقوى الايمان ويضمن للمسلم مستقبله المزدهر ويزيل من قلبه اليأس والوهن ويبشره بحياة فضل وعزة قعساء ان كان مؤمنا بكلمات الله.

التحرير

تملأ العالم اليوم تنبئات وتطلعات حول القرن الخامس عشر الهجرى الجديد . ذلك القرن الذى يبتدىء من هجرة سيدنا محمد ﷺ إلى المدينة المنورة ، و كذلك القرون ابتدأت بوجه عام بميلاد شخصية كبيرة أو وفاتها أو قيام دولة أو تحقق انتصارات عظيمة فى التاريخ (١) و كانت مصدر تقويم مستقل ، ولكن الاسلام

---

(١) مثلا التقويم المسيحى الذى يسود العالم كله ينتمى إلى سيدنا المسيح عليه الصلاة و السلام ، و التقويم البكرمى الذى ساد الهند ينتمى إلى الملك « بكرما جيت » و فى إيران و لدى الزردشت عرف تقويمان ، وكلاهما ينتميان إلى يزدجرد الثالث ، أحدهما يبتدىء بتاريخ جلوسه على العرش ، والثانى يبتدىء بوفاته ، وكذلك التقويم الغريغورى ينتمى إلى البولس غرى غورى الثالث عشر الذى يسود فى أوربا كلها منذ عام ١٥٨٢م (باستثناء الاتحاد السوفياتى و اليونان) .

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

يتميز عن الديانات الأخرى فى ذلك، فلم يسم دينه باسم نبيه ، ولكن باسم رسالته إذ أن الاسلام ليس اسماً لشخصية إنما هو اسم لمنهج وحكم إلهى ، يعنى الخضوع أمام أحكام الله ، وتلك هى ميزة هذا القرن ، فانه لم يبتدىء بوجود شخصية ، حتى إنه لم يبدأ بشخصية سيدنا محمد ﷺ التى تعتبر أعظم وأحب شخصية بعد الله تعالى ، ولكن هذا القرن لا علاقة لها بولادته ﷺ ولا بوفاته ، رغم أنهما حدثان كبيران فى هذا العالم و لكنه يتصل بهجرة النبى ﷺ .

و معنى ذلك أن القرن الهجرى الجديد سيطلع علينا برسالة ودعوة ، وأنه لايجدد ذكرى شخصية أو أمة فحسب ، بل يجدد ذكرى رسالة ، و هى أن النبى ﷺ هاجر من وطنه العزيز إلى موطن جديد وراء غاية عظيمة ، إن هذه الهجرة تذكرنا برسالة و باقدام كبير ، لأن النبى ﷺ لم يقم بها لانقاذ نفسه أو أصحابه المعدودين ، و لكنه قام بها لصيانة رسالة الله و لاتاحة الفرصة لتبليغها إلى العالم كله ، إن هذا القرن يذكرنا بما للغاية الكريمة و الهدف العظيم من أهمية و قيمة تسهل على المرء أن يضحى فى سبيلها بكل نفيس وغال . إنها رسالة حية ذات روح عالية فى تاريخ العالم كله ، تؤكد أن أمراً مهما كان نادراً وغريباً ، ومهما وضعت فى طريقه عراقيل و أثيرت ضده العواطف ، إذا كان نابعاً من إخلاص النية ، و كان القصد من ورائه إسعاد الانسانية مع تصمم العزم يتسع نطاقه و يشمل معناه و يتكلل بالنجاح عاقبة الأمر .

لذلك فان هذا القرن الخامس عشر الهجرى لا يبعث همة المسلمين فحسب ولكنه يوجه رسالة حياة إلى النوع البشرى كله ، وإلى جميع من يتوخون غاية صالحة من وراء أعمالهم و نشاطهم ، و يحملون راية دعوة نافعة و يبذلون مجهودات فى سبيل هدف أفضل أو غاية عظيمة .

أما أن يكون هذا القرن الجديد سعيداً للمسلمين و عن طريقهم للانسانية كلها أو يكون مشئوماً ؟ فذلك أمر لا يمكن أن نصدر حكما حوله الآن ، فمن قضاء الله تعالى و حقائق القرآن الأبدية التى لا تتغير ما قال الله تعالى : « و أن ليس للانسان إلا ما سعى » فان الانسان فى حياته الدنيا و فى آخرته لا يدرك أكثر مما يسعى ، إنما يدرك ما أنتج له سعيه كما يقول الله تعالى : « وإن سعيه سوف يرى » إنها رسالة حية ، للنوع البشرى كله ولجميع أدوار التاريخ ، إن سعى الانسان لايخلو من نتائجه التى يراها « ثم يجزاه الجزاء الأوفى » .

فان معانى سعى الانسان و ما ينتجه ويثمر له سعيه ، التى أشارت إليها الآية الكريمة إنما هى رسالة تحمل فى طيها معانى كريمة من الهمة العالية والروح الفياضة ، و إذا كان الشاعر الاسلامى محمد إقبال خاطب الانسان فى بيته الذى معناه : إن حياتك أيها الانسان إنما هى رهين عملك فاما إلى الجنة أو إلى النار ، فانك بفطرتك لست من أهل النور و لا من أهل النار » فانى أنشد هـــذا البيت و أخاطب به القرن الجديد ، فان هذا القرن و ما سبقه من قرون ليس فى طبيعته سعيداً و لا مشئوماً فى الواقع ، فان السعادة والشقاء إنما يتوقفان على مساعى الانسان و اتجاه أعماله . ونحن لا نستطيع أن نحكم مسبقاً لأى قرن أو سنة أو شهر و يوم وساعة أن فيه سعادة أو شئوماً ، ليس فى الاسلام نظرية الشقاء أوالسعادة التى كانت ولا تزال توجد لدى أمم جاهلية ظلت بعيدة عن تعاليم الأنبياء عليهم السلام ، لا يسمح لنا الاسلام بأن نحكم حول قرن قادم أنه سعيد جداً ، تسعد فيه الأمة الاسلامية كل السعادة ، أو أن هذا القرن مشئوم لأمة أوللاقدار الانسانية ، إنه ليس تفكيراً إسلامياً و لا يؤيده الكتاب والسنة ، ذلك لأن التصور عن زمن خاص أنه سعيد ميمون بوجه دائم ، أو باعث على الشؤم والشقاء يضر بقوة العمل الانسانية ، إن الانسان

إذا اعتقد أن هناك ساعة مشئومة تستقبله قريباً بادت قوته العملية بالانهيار ، وتعطلت قوة حكمه بتاتاً .

إن رسول الله ﷺ قضى نهائياً على التعلق بالأوهام والمغالاة فى الاعتقاد بشئ و الاعجاب بشخصيـة ، انكسفت الشمس ذات مرة فى عهده ﷺ و صادف ذلك وفاة سيدنا إبراهيم بن رسول الله ﷺ بقليل (١) وكان الله سبحانه قد أراد فى ذلك حكمة التربية ، لأن العرب المسلمين آنذاك كانوا قريبى العهد بالجاهلية و لم يكن العالم قـد تخلص من تأثيرها تماماً ، ثم إن حادث الوفاة كان أمراً غير عادى أثار العواطف فتكلم بعض المسلمين و قالوا كيف لا تنكسف الشمس و قد توفى ابن رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و لو كان مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه المناسبـــــة الحزينة أى داع من الدعاة أو زعيم من الزعماء أو قائد دعوة و حركة وجماعة لسكت على هذا الكلام إذا لم يوفق إلى نفيه ، ظناً منه أن ذلك الكلام إنما هو فى مصلحة دعوته و حركته ، و ظن أنه لم يتول لفت الأنظار إلى هذه الناحية ، بل إن الناس بأنفسهم فكروا فى ذلك و قالوا إن الشمس إنما انكسفت لوفاة ابن رسول الله ﷺ ، فلاحاجة إلى نفى هـذا التفكير ، و ذلك هو الفرق بعينه بين النبى وغيره ، فان الأحداث التى يستغلها أصحاب الفكر السياسى ، وإن كانت حوادث طبيعية ، يرى الأنبياء الكرام عليهم السلام استغلالها على حساب الدين حراماً ، وأمراً يرادف الكفر ، ولا أدرى أن أحداً سوى محمد ﷺ يكون قد صدق فى هذا الامتحان من غير الأنبياء و من مؤسسى الجماعات و زعماء السياسة ، و هنالك قام رسول الله ﷺ خطيباً فى القوم فقـال : « إن

---

(١) توفى سيدنا إبراهيم عليه السلام عام ١٠ من الهجرة ، وكان ابن سنة ونصف .

الشمس و القمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد و لا لحياته » (١) . كأن النبي ﷺ سألهم عما ذا قالوا؟ ثم رد عليهم بأن الشمس و القمر لا يتغيران لموت أحد من الناس و لا لحياته ، إنما هما آيتان من آيات الله ، و متقيدان بقانون يخصهما ، لا يؤثر عليهما موت ولا حياة ، و لو أن رسول الله ﷺ آثر السكوت فى هذه المناسبة لم يك ذلك سبباً لفساد ، بل إن ظناً خاطئاً كان قد وجد سبيلا إلى قلوب الناس بناءاً على الحب و الاعجاب بشخصية الرسول ﷺ ، وبحكم الاضطرار، ولكن لم يتحمله رسول الله وسرعان ما نفاه وقال: كلا ، إن ذلك الحادث لا علاقة له بأسرتى أو بولدى ، فان الكون أوسع من ذلك ، و إن ذات الله تعالى أغنى عن ذلك ، و قانونه أرفع من مثل هذه الأمور ، لقد كان ذلك إرشاداً مبدئياً يتعلق بالأساس ، وجه إلى النوع البشرى كله بل العقل الانسانى كله ، فان العقل الانسانى أهم من النوع الانسانى و إنه يحكم النوع الانسانى كله و ليس بالعكس ، لقد كان ذلك انحرافاً للعقل الانسانى خطيراً ، و كان لا بد من وضع الحد عليه .

كنت أتحدث وأقول : إن قرناً من القرون ليس سعيداً بذاته ولا مشئوماً ، وأضرب لكم مثالا للكأس ، إنها إذا كانت فارغة لا نحكم عليها بشئ ، إن ذلك يتوقف على مافيها من الماء البارد ، فان كانت فيها خمر ـ لاقدر الله ـ كانت الكأس كأس الخمر ، أو كان فيها سم دعيت بكأس السم ، و أما الكاس بذاتها فهى بريئة وشئ حيادى . و الأمر إنما يتوقف على من يملأ الكاس فان ملأها بالزمزم فهى كأس الزمزم . و إن ملأها بالخمر فهى كاس الخمر ، و هنا نستطيع أن نقول إن سعادة أو شقاء هذا القرن إنما يتوقف على سعى الأمة التى أخرجها الله تعالى لحمل رسالته الأخيرة .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الكسوف ج ١ ٢٩٦ .

و بالمناسبة أضرب لكم ثلاثة أمثال ، مثالان منها لقرنين ابتـداء بأحداث هائلة مخيفة وأحوال سيئة تبعث على اليأس وتقطع الآمال ، فقد استقبلهما مورخو ذلك العهد بشئ كثير من القلق والحزن وبالجروح والدموع ، وقد شهد المؤرخان ابن أثير وابن كثير كيف أن الأوساط الاسلامية استقبلت القرن السابع الهجرى ، فقد كانت الدلائل و الموشرات كلها تشير إلى أن ذلك القرن ليس فى مصلحـة المسلمين و لا فى مصلحة الأمة الاسلامية ، و فى مصلحة الاسلام . وسيكون أشام قرن فى حق الانسانية كلها ، فقد كان هذا القرن استهل بحادث غير عادى كما يقول المؤرخ ابن أثير الجزرى (المتوى ٦٣٨هـ) « فلو قال قائل إن العالم منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها و لا مايدانيها » (١) .

و أعنى بذلك زحف التتار الذى تم فى عام ٦١٦هـ على أكبر مملكة فى ذلك الوقت و هى مملكة خوارزم شاه ، كان ذلك فى مبدأ القرن السابع الهجرى و فى القرن الثالث عشر الميلادى ، و قد نهض التتار كجراد منتشر و سيطروا على العالم الاسلامى كله ، و دمروا تركستان و إيران ، و أتوا على المدن الكبيرة بأسرهـا و أبادوها ، حتى إنهم رفعوا مناور عالية من رؤس القتلى و جثثهـا ، و تسلقوا عليها ، و تحولت المدن إلى مقابر ، و لكى نقـدر هول الحادث يحسن بنا أن نقرأ ما كتبـه « إيدورد جبون » فى كتابة (سقوط و انحطاط الروم) (De!cllne_ _And lfal of the Roman Empire) .

« إن أهالى السويد اطلعوا على الزحف التتارى عن طريق روسيا ، و قد بلغ الرعب والخوف فى قلوبهم مبلغاً عظيماً حيث إنهم لم يخرجوا للاقتناص كعادتهم

(١) الكامل لابن أثير ١٢ - ١٤٧ .

ظل دعاة الاسلام مشغولين بوظيفتهم فى صمت من غير دعاية ، و لا أدرى بما إذا كان المسلمون قد أسسوا حينذاك جمعية لدعوة التتر إلى الاسلام أو نشروا إعلاناً عما إذا أسلم التتار أفاد ذلك عودة المسلمين إلى الحكم المفقود والحصول على السلطة ، لا أعلم أن شيئاً من ذلك قد وجد و لكننى أعلم أن هؤلاء الدعاة قاموا بواجب الدعوة فى هذه الأمة التتارية من غير أن يطلع عليه الناس ، وما هى إلا مدة قليلة إذ فوجئ العالم باسلام الأمة التتارية جمعاء .

إننى مثلت لكم بالقرن السابع الهجرى والثالث عشر الميلادى الذى بدأ بأحداث مروعة أفزعت قلوب المسلمين ، ولو لا أنهم كانوا يتمتعون بقوة العقيدة لهجمت عليهم ردة فكرية و حضارية إن لم تكن ردة إيمانية ، و لكن لم تحدث هناك ردة حضارية و لا فكرية فضلا عن الردة الايمانية .

وأضرب لكم مثالا آخر للقرن العاشر الهجرى (القرن السادس عشر الميلادى) ولا أتوغل بالمناسبة فى تاريخ العالم الاسلامى الواسع بل أتحدث عن الهند التى أظل عليها أواسط القرن العاشر الهجرى فى ظروف قاسية ، كانت تهـدد حرمان الهند قيادة الاسلام و توجيهاته ، بل كادت تحرم فضل الاسلام ونعمته ، كان يبدو أن ذلك يتم فى ظرف أيام ، إقرأوا تفاصيل ذلك فى كتب التاريخ (١) .

وقد وجدت آنذاك فى العالم الاسلامى مملكتان كبيرتان ، مملكة العثمانيين فى آسيا الصغرى ، و مملكة المغول فى شبه القارة الهنـدية ، و كانت المملكة الصفوية فى إيران على الدرجة الثالثة ، و قد حدث هنا فى الهند أن عدداً من عباقرة العلماء و المثقفين ـ يتميز من بينهـم أبو الفضل و فيضى عن غيرهم ـ انضموا إلى حركة كان يقودها امبراطور عظيم ذو عزم أكيد وذكاء نادر وغزو و انتصار ، وكانت

---

(١) مثلا ـ رجال الفكر و الدعوة « المجلد الرابع » للمؤلف .

«أرنولد» فى كتابه : الدعوة إلى الاسلام (Preching of Islam) أن يصور أوضاع المسلمين من اليأس والشعور بالهزيمة ، وكان يستطيع فى ذلك الوقت كل شخص يتمتع بالشعور و المشاهدة و قوة الاستنتاج من ترتيب المقـدمات والأسباب ، أن يتنبأ فيعتقد أن الاسلام قد ولى عهده و أوشكت شمسها على الغروب ، و لا شك فان المسلمين هم الذين كانوا هـدف الهجمات التتارية فى الواقع و قد ضاق عليهم مجال العمل و الأمل معاً ، يقول « آرنولد » و هو يتحدث عن منافسين قويين للاسلام و هما : البوذية و المسيحيـة « كانا يحاولان إحراز قصب السبق فى ذلك المضمار و ليس هناك فى تاريخ العالم نظير لذلك المشهـد الغريب ، و تلك المعركة الحامية التى قامت بين البوذية و المسيحيـة و الاسلام ، كل ديانة تنافس الأخرى لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة ، الذين داسوا بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة و المبشرين فى جميع الأقطار و الأقاليم » (١) .

كل الدلائل كانت تشير إلى أن المسيحية ستنتصر لأنها لم تكن الخصم المناهض فى هذه الحرب ، ثم إن المسيحيات والمسيحيين كانوا فى قصور أمراء جنكيز خان ، فاذا كانت هناك مسألة اعتناقهم بدين كانت المسيحية فى مقدمة كل دين ، لم يكن يشك أحد فى اعتناقهم بها ، و لكن هل تعرفون ماذا وقع ؟ لقـد اضطر آرنولد إلى الاعتراف بالواقع ، يقول : « و لكن لم يكن بد من أن ينهض الاسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى و أطلال مجده التالد ، كما استطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين و يحملهم على اعتناقه » (٢) .

و يقول : « و على الرغم من جميع المصاعب أذعن هؤلاء المغول والقبائل

---

(١) الدعوة إلى الاسلام ص ٢٥٠ .

(٢) أيضاً ص ٢٤٦

المتبربرة آخر الأمر لدين هذه الشعوب التى ساموها الخسف و جعلوها فى مواطئ أقدامهم » (١) .

إن القرن الذى بدأ بالشئوم - إذا كان فى الاسلام مجال لكلمة شؤم - القرن الذى بدأ بالظلام الشامل و اليأس العام ، إنما تحول إلى قرن « فتح مبين » للاسلام و بهت به العالم وقضى العجب مما رأى من أن التتار الذين لم تزل أيديهم مخضوبة بدماء المسلمين كيف خضعوا للاسلام ، يقول : « هورث » .

« وقد بلغ من سوء المعاملة التى لقيها هؤلاء أن رائضى الخيول من أهالى الصين كانوا إذا عرضوا أشباحاً أظهروا البشر والحبور فى صلف و إعجاب بعرض صورة تمثل رجلا مسنا ذا لحية بيضاء يجره حصان قد ربط ذيله برقبة هذا الرجل ، إنما كان هؤلاء يفعلون ذلك ليظهروا للناس كيف يتصرف فرسان المغول فى معاملتهم للمسلمين » (٢) .

و الواقع أن المسلمين إنما كانوا قد فقدوا كل شئ و لكنهم لم يفقدوا الاعتماد على الله و الايمان بالله ، و العقيدة ، و القوة الروحانية ، و لذلك فان المسلمين لم يلاقوا الهزيمة ، وإنما كانت الهزيمة نصيب الملوك المسلمين الأشقياء ومجتمع مريض فاسد - أقول ذلك بصراحة و تألم - أما الاسلام فقد كان ثابتاً فى مكانه من غير أن يصاب بأدنى فتور فى نشاطه و قوته . كان المسلمون قد ظنوا أن إخضاع التتار بالسيف مستحيل ، لأن سيف الاسلام مفلوله بل مكسر ، أو عائد إلى الغمد ، و قد أثبت التتار أن لديهم قوة عسكرية أقوى من المسلمين ، و أنهم بعيدون عن أدواء الثراء و السياسة و المدنية و يملكون من قوة التحمل و الصبر

---

(١) أيضاً ص ٢٥٨ .

(٢) تاريخ المغول لهورث ج ١ ص ١٥٩ .

على المكاره و الشدائد ما كان ميزة العرب الأقوياء و فاتحى الاسلام فقط ، و أنهم لم يخرجوا من محيط الصحراء إلا بعد قرون حيث إن طاقتهم لاتزال كامنة عندهم لا يمكن أن تقاومها السيوف .

هل تعرفون من انتصر على التتار ، من حبب إليهم كلمة الاسلام ؟ لقد تمثل أمامهم فى ذلك الوقت العصيب و الظـلام الحالك رجال من أصحاب القلوب كانوا يتمتعون بالقوة الروحية ، فتولوا من إسلام التتار كأمة فى ظرف نصف قرن ، إن التاريخ كلـه يزخر بقصص إسلام الناس أفراداً و جماعات و مدناً بأسرها ، و لكن أمثلة إسلام الناس كأمة لا تتجاوز ثلاثة أو أربعة أمثلة فيما أعلم ، فان العرب أسلموا كأمة ، والأفغان أسلموا كأمة ـ و هم يعانون اليوم مع الأسف من المحن ما لا يخفى ـ و كذلك الأتراك و التتار لم يسلموا أفراداً إنما دخلوا فى دين الاسلام كأمة ، مأة فى المأة ، إنه لغز من ألغاز التاريخ و قد واجهته أنا شخصياً كذلك ، و هو أن يتم هذا الواقع الذى غير مجرى التاريخ و خلف تأثيراً عميقاً على مستقبل العالم كله ـ أعنى به إسلام التتار كأمة ـ ثم لا نجد فى التاريخ أسماء من تولوا إسلام التتار و يرجع إليهم الفضل فى ذلك ؟ ! ما السر فى ذلك ؟ !

لقد تذكرت بالمناسبة قصة جندى مسلم فى فتح المدائن عثر على تاج كسرى ، فأخفاه فى ثيابه ـ شأن المال المسروق ـ وجاء به إلى قائد قوات الجيش الاسلامى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، و قال أيها الأمير : يبـدو كأن هذا شئ ثمين ، و أنا أسلمك إياه ، لكى تجعـله فى بيت مال المسلمين ، و قبل أن يقبل التاج رأى الأمير ـ و هو من العشرة المبشرة ـ إلى الرجل بشئ من الدهشـة ، وتحدث فى نفسه فقال : كيف لم تفسد نية هذا الرجل المسكين البدوى فى هذا التاج الثمين ، المرصع الغالى ؟ كيف لم يفكر فيما إذا ذهب به إلى خيمته وامتلكه دون أن

يسلمه إلينا ، فسأله الأمير عن اسم الرجل ، فتولى عنه و قال : إن الذى قمت له بهذا العمل يعرف اسمى و انصرف .

هذه قصة فرد واحد ، و أظن أن الذين تولوا إسلام التتار كانوا يتسمون بهذه الميزة ، وأنهم أخفوا أسماءهم . و قد واجهت أنا صعوبة فى تحقيق أسماء هؤلاء العظام حينما عرضت لى حاجة إليها أثناء تأليفاتى ، و بعد بحث و عناء طويل عثرت على اسمين ، أحدهما لوزير صالح يدعى بالأمير توزون (١) الذى كان رئيس الوزراء لملك التتار ممن كان يحكم العراق ، كان هذا الوزير رجلا صالحاً من العباد و الزهاد و ظل يلقى إلى الملك قولا عن الاسلام و يحببه إليـــــه حتى فوجئ أهل بغداد فى يوم جمعة أن رأوا الملك التتارى السلطان قازان و وزراوه معه متجهين نحو الملك يحملون بأيديهم السبح ، يقول ابن كثير فى البداية والنهاية : و نثر الذهب والفضة على رؤس الناس يوم إسلامه و تسمى بمحمود ، و شهد الجمعة و الخطبة وخرب كنائس كثيرة ، و ضرب عليهم الجزية و رد مظالم كثيرة ببغداد وغيرها من البلاد ، و ظهرت السبح و الهياكل مع التتار ، و الحمد لله وحده » (٢)

و المأثرة التاريخية الثانية هى للشيخ جمال الدين ، و قد انتشر الاسلام بفضل إخلاصه وورعه فى إحدى أسر التتار التى عرفت بأسرة جغطائى التى كانت فى البلاد المتوسطة و كان مركزها كاشغر ، وأسلمت الأسرة بكاملها ، و مما يحكى أن الشيخ جمال الدين كان متجهاً مع جماعة إلى جهة ، وكان التتار يكرهون الفرس ويبغضونهم وما كانوا يقيمون لهم أى وزن ، وكان الشيخ فارسياً ، وصادف ذلك يوم الصيد للأمير تغلق تيمور ولى عهد الأسرة الجغطائية ، وقد كانت مناسبة تتويجه قريبة ،

---

(١) يسميه آرنولد و غيره من المؤرخين « نوروزبيك » .

(٢) البداية و النهاية ج ١٣ - ٣٤٠ .

و معلوم أن الصيد يضم فى طيه أوهاماً ولاسيما الأمراء هؤلاء كانوا يعتقدون بأوهام وخرافات ، فلما رأى الأمير أن الشيخ جمال الدين قد توغل إلى الأرض التى كان قد خصصها للصيد لنفسه أمر بأن توثق أيديهم وأرجلهم ويمثلوا بين يديه ، لأنه تشاءم بهم وتنغص من أجلهم ، و سألهم فى غضب : كيف جرؤوا على دخول هذه الأرض ، و لما علم أنهم من الفرس قال لهم : إن الكلب أغلى من أى فارسى ، و أشار إلى كلبه ، تصوروا كيف يكون المنظر و ماذا تكون حال الشيخ جمال الدين بعد هـذا الكلام ، ولكنه لم يحدث فيه أى تغيير ولا ثورة ، بل إنه أجاب فى هدوء وقال : إنه لا يمكن أن نحكم الآن فى هـذا ، فسأله الأمير و متى يمكن ذلك ، فقال : إن ذلك يتوقف على خاتمتى ، إذا كانت على الايمـان فأنا أحسن وأغلى من الكلب ، أما إذا لم أسعد بحسن الخاتمة فلا شك أن الكلب هو أغلى منى .

أثر هذا الكلام الصريح فى قلب الأمير لأنه كان صادراً من القلب فوقع فى القلب ، و كم ذا من الدموع و الدعاء تكون قد تبعت هذه الكلمة ، وكأنه قـد قال بلسان حاله : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى و قلة حيلتى ، و أنت تملك أن تمنح كلامى هذا تأثيراً فى القلب ، وتلك هى لحظـة قضاء الله فى إسلام الأمير ، لأنه إذا سعد بالاسلام سعد به حظ المسلمين (١) .

وعرض الشيخ على الأمير تغلق تيمور قواعد الاسلام فى غيرة وحماس ، انفطر لهما قلب الأمير حتى كاد يذوب كما يذوب الشمع ، وصور له الكفر بصورة مروعة اقتنع معها بضلال معتقداته وفسادها ، وقال : « لكنى إذا اعتنقت الاسلام الآن ، فلن يكون من السهل أن أهدى رعاياى إلى الصراط المستقيم فلتمهلنى قليلا ، فاذا

---

(١) ذكر « آرنولد » رد الشيخ على الأمير ضمن هذا الحادث و هو أنه قال : نعم قد كنا أخس من الكلب وأبخس ثمناً منه لو أننا لم ندن بالدين الحق » .

ما آلت إلى مملكة أجدادى ، فعد إلى » وذلك أن إمبراطورية جغطائى انقسمت فى ذلك الوقت إلى إمارات صغيرة ، وظلت على ذلك سنين طويلة حتى نجح تغلق تيمور (Tuqluq Timur) فى توحيد الامبراطورية كلها تحت سلطانه ، وجمع كلمتها كما كانت من قبل ، و فى هذه الأثناء كان الشيخ جمال الدين قد عاد إلى بلده حيث مرض مرضاً شديداً ، فلما أشرف على الوفاة قال لابنه رشيد الدين : « سيصبح تغلق تيمور يوماً ملكا عظيماً ، فلا تنس أن تذهب إليه وتقرئه منى السلام ولا تخش أن تذكره بوعده الذى قطعه لى » ولم يلبث رشيد الدين إلا سنين قليلة حتى ذهب إلى معسكر الخان ، و كان قد استرد عرش إمبراطورية آبائه ، تنفيذاً لوصية أبيه ، و لكنه لم يستطع أن يظفر بالمثول بين يدى الخان برغم ما بذله من جهود ، و أخيراً لجأ إلى هذه الحيلة الطريفة : ففى ذات يوم أخذ يؤذن فى الصباح المبكر على مقربة من من فسطاط الخان ، فأقلق ذلك الصوت نوم الخان و أثار غضبه فأمر باحضاره و مثوله بين يديه ، وهناك أدى رشيد الدين رسالة أبيه ، و لم ينس تغلق تيمور وعده وقال : « حقاً ما زلت أذكر ذلك منذ اعتليت عرش آبائى ، ولكن الشخص الذى قطعت له ذلك الوعد لم يحضر من قبل ، والآن فأنت على الرحب والسعة ، ثم أقر بالشهادتين ، و أصبح مسلماً منذ ذلك الحين ، و أشرقت شمس الاسلام و محت بنورها ظلام الكفر .

و دعا الملك تغلق تيمور رئيس وزرائه ، و قال له : إننى أحمل فى صدرى سراً منذ زمن ، لقد وقع ما سمعته الآن مع الشيخ جمال الدين ، و لا يزال له تأثير فى قلبى ، فقد قضيت أن أسلم فما رأيك ؟ فقال له الوزير أيها الملك : إننى مسلم من زمان ، و كنت أخفى إسلامى ، و قد اهتديت إليه فى إحدى رحلاتى إلى إيران ، و دعى الوزراء و الأمراء إلى الملك ، و أسلموا بعد ما علموا باسلامه .

هؤلاء التتار لم يكونوا يتمتعون بالعلم و لا بالحضارة ، و لا بدين سماوى تستسيغه عقولهم ، و قد كانوا أخذوا القوانين من المسلمين « ولله جنود السماوات و الأرض » (الفتح ٧) و كان ذلك حكمة إلهية إذ لم يكن بوسع التتار أن يقوموا بتدبير هذه المملكة الواسعة الراقية ، كان هناك مقننون من المسلمين ، ونظام الرى ، و جباته الضرائب ، و أحكام القضايا ، و كان لدى التتار قانون محدود للتعزير وضعوه على أساس تجاربهم فى حياة الصحراء المحدودة ، فكانوا فى أشد حاجة إلى المسلمين من قبل ، و كان المسلمون من العلماء و خبراء القانون قد أدوا واجبهم نحو هذه المملكة الواسعة ، إنهم ساعدوهم فى تدبير شئون المملكة . و طبعوا فى نفوسهم توجيهات الاسلام للحياة و كفاءته الواسعة فى تنظيم المجتمع و الدولة ، إنهم رأوا أن مرحلة الايمان و العقيدة التى كانت تترقب دورها قد تحققت الآن .

وما أن أسلم الملك تغلق تيمور إلا و قد أسرع التتار فى إيران نحو اعتناق الاسلام وتم إسلام الجميع فى عدة أيام ، و كانت الأسرة التترية الحاكمة فى العراق قد سبقتهم إلى الاسلام بجهود الأمير توزون ، و كانوا يتتابعون فى قبول الاسلام ويتسابقون فى عدد جم يبلغ مئات الآلاف ، و كل ذلك قدتم بفضل مجهودات العلماء و الوعاظ والدعاة المخلصين ، وخاصة بالجهود المخلصة التى بذلها العلماء الربانيون من أهل القلوب ، و تلك حقيقة لايختلف فيها اثنان ، فان التاريخ شاهد عدل على ما قام به أصحاب القلوب المؤمنة هؤلاء من عمل جبار فى سرية و خفاء نحو تحبيب الاسلام إلى هؤلاء التتار ، و استدركوا بذلك ما لقيه المسلمون من هزائم سياسية ، و ما واجهوه من إخفاق فى مجال السياسة ، و قلبوا الوضع ظهراً على بطن .

وقد أشار البروفيسور هتى (HITTI) إلى هذه الحقيقة التاريخية وصدقها بقوله :

« طالما حدث أن « الاسلام الدينى » أحرز نجاحاً كبيراً فى أحرج ساعات

« الاسلام السياسى » (١)

ويقول أحد الفضلاء الهولنديين لوكے گارد (FREDE LOKKE GOARD)

« رغم أن الاسلام أصيب بالانحطاط السياسى مرات كثيرة إلا أن الاسلام الروحانى ما زال متقدماً نحو الأمام (١)

وهـــذا المستشرق الشهير (H. A. R. GIBB) ألقى ذات مرة خطاباً أمام مجلس جامعة أوكسفورد ، فقال :

« طالما شهد تاريخ الاسلام أن الثقافة الاسلاميـة قوبلت بمنافسات شـديدة ولكنها لم تنهزم رغماً من ذلك ، ذلك لأن الأسلوب الصوفى وتفكير العلماء الربانيين أسرع إلى دعمها وتأييدها ، ومنحها قوة لم تصمد فى وجهها أى طاقة مضادة »(٣) .

و لا شك فان هؤلاء التتار يسجلون فى كتاب العلماء الربانيين ، و إن هؤلاء الآلاف المؤلفة الذين غيروا مجرى التاريخ حينما يبعثون يوم القيامـــة ، يعـــدون فى حسابهم ، وأولئك هم الذين ينطبق عليهم قول الحطيئة .

أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم من اللوم أو سدوا المكان الذى سدوا

ضربت لكم مثلا بالقرن الذى بدأ بأحداث هائلة كانت تهـــدد بقاء الاسلام لكن المسلمين لم يخسروا الهمة العالية إذا كانوا قد خسروا الدولة و المملكة ، وتلك حقيقة ثابتة ، فان الدولة يمكن أن يخسرها المسلمون عشر مرات ، ولكنها تستطيع أن تعود فى المرة الحادية عشرة ، أما الهمـــة إذا خسرها صاحبها مرة واحـــدة فانها لاتعود فى أغلب الأحوال .

---

(1) History of Arabs P, 475 .

(2) Islami Taxtation in the Clanic .

(3) Islamic Culture 1942 P, 265 .

ظل دعاة الاسلام مشغولين بوظيفتهم فى صمت من غير دعاية ، و لا أدرى بما إذا كان المسلمون قد أسسوا حينذاك جمعية لدعوة التتر إلى الاسلام أو نشروا إعلاناً عما إذا أسلم التتار أفاد ذلك عودة المسلمين إلى الحكم المفقود والحصول على السلطة ، لا أعلم أن شيئاً من ذلك قد وجد و لكننى أعلم أن هؤلاء الدعاة قاموا بواجب الدعوة فى هذه الأمة التتارية من غير أن يطلع عليه الناس ، وما هى إلا مدة قليلة إذ فوجئ العالم باسلام الأمة التتارية جمعاء .

إننى مثلت لكم بالقرن السابع الهجرى والثالث عشر الميلادى الذى بدأ بأحداث مروعة أفزعت قلوب المسلمين ، ولو لا أنهم كانوا يتمتعون بقوة العقيدة لهجمت عليهم ردة فكرية و حضارية إن لم تكن ردة إيمانية ، و لكن لم تحدث هناك ردة حضارية و لا فكرية فضلا عن الردة الايمانية .

وأضرب لكم مثالا آخر للقرن العاشر الهجرى (القرن السادس عشر الميلادى) ولا أتوغل بالمناسبة فى تاريخ العالم الاسلامى الواسع بل أتحدث عن الهند التى أظل عليها أواسط القرن العاشر الهجرى فى ظروف قاسية ، كانت تهـدد حرمان الهند قيادة الاسلام و توجيهاته ، بل كادت تحرم فضل الاسلام ونعمته ، كان يبدو أن ذلك يتم فى ظرف أيام ، إقرأوا تفاصيل ذلك فى كتب التاريخ (١) .

وقد وجدت آنذاك فى العالم الاسلامى مملكتان كبيرتان ، مملكة العثمانيين فى آسيا الصغرى ، و مملكة المغول فى شبه القارة الهندية ، و كانت المملكة الصفوية فى إيران على الدرجة الثالثة ، و قد حدث هنا فى الهند أن اعتدداً من عباقرة العلماء و المثقفين - يتميز من بينهم أبو الفضل و فيضى عن غيرهم - انضموا إلى حركة كان يقودها امبراطور عظيم ذو عزم أكيد وذكاء نادر وغزو و انتصار ، وكانت

---

(١) مثلا - رجال الفكر و الدعوة « المجلد الرابع » للمؤلف .

وكانت تهدف هذه الحركة إلى تغيير وجهة الهند من الاسلام إلى دين جديد اخترعه الامبراطور « أكبر » وسماه الدين الالهى ، و إلى وحدة الأديان التى كانت الكفة فيها راجحة إلى جانب آخر بصفة دائمة (١) .

كان ذلك مجمعاً خطيراً للقوة المادية و الذكاء النادر أو كانت مؤامرة ضد الاسلام تتولاها مملكة مطلقة ، و عقلية منحرفة يتعذر نظيرها فى التاريخ ، و كان الناس يعلنون جهاراً أن القرن العاشر أوشك على النهاية و القرن الحادى عشر على الأبواب ، وإن ألف سنة ، مدة كبيرة لأى دين من الأديان ، وقد قام رجال من العلماء و المثقفين ، ممن لم يكونوا على جانب كبير من العلم و الورع ، و كانوا يحرصون على المناصب ، فوفروا لذلك دلائل فى ضوء تاريخ الديانات ، و أثبتوا أن ديناً لم يدم أكثر من هذه المدة ، وكلما مر عليه ألف سنة حل محله دين جديد و قيادة فكرية جديدة ، و قالوا : إن الدين العربى قد قضى حاجته ، و مر على نبوة محمد ﷺ ألف سنة ، فان الجيل الجديد بحاجة إلى دستور جديد و شريعة جديدة ، وما أكثر الفتن التى تنشأ من فلسفات تتحرر عن قيود الدين والأخلاق!

تصوروا هذا الخطر المتفاقم ، لقد كان حامل لواء هذه الحركة و رمزها ذلك الامبراطور الذى كانت الهند كلها ترتجف أمام سيفه ، الذى كان قد ذلل كل

---

(١) إن هذه الحركة التى أسست على التسامح والصلح الكامل لم تكن عادلة فى حق الاسلام فرجحت فيها طبعاً كفة الديانة و الفرقة التى كانت ذات تأثير فى البلاط و يميل إليها الامبراطور ، فقد اعترف مؤرخو « تاريخ الهند بايجاز» و، ه مورليند ، و ا ، س ، « جترجى : بأن قوانين البلاط الأكبرى كانت أقرب إلى الديانة الهندوكية منها إلى دين الاسلام و أكثر حماية لها .

عقبة كاداء ، وما كان يعرف للهزيمة و الفشل معنى ، كان دم الشباب و القوة يجرى فى عروقه و شرايينه ، ويقتفى آثار آبائه و أجداده فى حل المشكلات و الطموح إلى المعالى . فبينما هو إمبراطور إذا هو عبقرى ، خلف وراءه كتابات تشهد بعبقريته و فرط ذكائه .

فمـــــــــــــــــــــاذا كان ! حلت أواخر القرن العاشر تحمل فى طيها دلائل ثورة ضد الاسلام و تنبئ أن الاسلام لم يعـــد له قرار فى هذه البلاد ، ويكاد يودع أهلها ، الأمر الذى يعنى أن السلطة الدينية والروحية تكاد تنتقل من أهلها إلى طاقات و فلسفات جديدة مع انتقال السلطة السياسية إلى غير أهلها ، إن هذه الثورة كادت تقضى على تلكم المجهودات التى بذلها الغزاة المغامرون لفتح هذه البلاد منذ عدة قرون ، و فى جانب آخر كانت تضيع ثمار ذلك الجهاد الذى قام به الشيخ معين الدين الجشتى و خلفاؤه المخلصون ، أولئك الذين وجهوا من داخل زواياهم إلى أرواح سعيدة ، دروس الانسانية و الحب والمساواة والعدالة الاجتماعية ، و أشرفوا على الحكومـــة الحاضرة دينياً و خلقياً من خارج زواياهم ، و هيأوا للدولة و المجتمع أفراداً صالحين أقوياء أمناء ورعين محبين للانسانية ، و نفخوا فى حركات البلاد العلمية و التربوية روحاً جديدة (١) .

ثم ماذا حدث ؟ لقد طلع نجم من زاوية الايمان والاخلاص و العلم والحكمة وحدها التى ظلت متدفقة بالحيـــاة و النشاط على الدوام ، و إنه لم يطلع من أفق مادى أو سياسى ، و قد عرف باسم الشيخ أحمد السرهنـــدى مجدد الألف الثانى

---

(١) للاطلاع على التفاصيل راجعوا « تاريخ مشايخ الجشت » للبروفيسور خليق أحمد نظامى . و كتاب « نظام تعليم و تربية المسلمين فى الهنـد » للشيخ مناظر أحسن الجيلانى .

(٩٧١ - ١٠٣٤هـ) ذلك الرجل العظيم الذى تحدث عنه محمد إقبال الشاعر الاسلامى فقال ما معناه :

« ذلك الرجل الكبير الذى نهض لصيانة تراث الدين ، و أكرمه الله تعالى بالعلم والمعرفة ، ذلك الذى لم يحن رأسه أمام الملك جهانكير ، ونفخ فى الأحرار روحاً وثابة من الايمان و الحنان » .

ولمقاومة تلك المؤامرة ضد الاسلام التى دبرها عباقرة ذلك العصر يقوم رجل فقير فى إحدى زوايا « سرهند » و يعتزم أن ذلك لا يكون ، إنه تساءل نفسه ، فقال لماذا يحرم المسلمون فى هذه البلاد أن يعيشوا أحراراً أعزاء متمسكين بشعائرهم الدينية و لماذا يضيق عليهم وحدهم مجال الحياة ؟ ؟ .

فماذا كانت النتيجة ؟ لما بدأ القرن الحادى عشر الهجرى رأى العالم أن الأوضاع تغيرت و أن مستقبل الاسلام فى هذه البلاد أصبح مضمونا إلى ما بعده بقرون ، قام هذا الرجل العظيم من سرهند لدحض الأباطيل والمغالطات العلمية والاشراقية التى عمت ضد حاجة و بقاء النبوة والرسالة المحمدية وضد مكانة الشريعة ودوام السنة ، و أعاد ثقة الناس إليها (٢) كما سد منافذ هذا الخطر الكبير و وضع عليه حداً بحكمة عملية ، من غير إعلان أو استنكار ، و لم يحاول تنظيم قوة ضد الامبراطور « أكبر » لقد تفطن بدراسته التاريخية و بصيرته القرآنية أنه يخفق أيما إخفاق إذا أبدى خصومته له ، وتمثل أمامه كخصم ، و سوف لا تنفتح له طرق العمل ، فينبغى له أن يدعو الله و يجمع حوله مخلصين أكفاء و يتناولهم بالتربية الشاملة التى تنجو بهم من مزالق المال والحكم و تجعلهم بحيث لا يطمحوا إلى الجاه والمنزلة

---

(٢) من أراد التفصيل فليراجع « رجال الفكر و الدعوة » للمؤلف ج ٤ الباب الخامس .

إنه فكر فيما إذا خاطب قلوب الأمراء المسلمين الذين كانوا يشغلون مناصب عالية فى بلاط جهانكير و حكومته ، و إذا كتب إليهم يذكرهم بمسئوليتهم نحو الاسلام الذى يمر بمرحلة خطيرة فى الوقت الحاضر ، حتى يقوموا بدورهم بأسلوب على فكرى بناء ، وبثقة من القلب و يقين منه .

إنه فكر فى ذلك و بدأ يراسل هؤلاء الأمراء الذين تطول قائمة أسمائهم ، و يجدر بالذكر منهم عبد الرحيم خان خانان ، و الأمير مرتضى خان (سيد فريد) فكانت النتيجه أن الوضع تغير فى ظرف ١٥-٢٠ عاماً ، وأضحى مسلمو الهند موضع اهتمام العالم الاسلامى كله فى الروحانية و علم الحديث و حتى فى لغة العرب ، التى كانت تختص بالبلاد العربية وحدها ، و إن المكانة التى حظيت بها الهند فى خدمة العلوم الاسلامية و وجود رجال العلم و الدين الكبار فيها إنما يرجع الفضل فى ذلك إلى هذه الجهود المخلصة التى بذلها الامام السرهندى ، و ظلت مصابيح العلم و التحقيق تتوقد فى أرجاء هذه البلاد ، و ظهر بعد مدة الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى (١١١٤ - ١١٧٦هـ) الذى أسس علم كلام جديد ، وقام بشرح وإيضاح معنى نظام الخلافة وعرض مخطط الحكم الاسلامى الصحيح الذى لم يسبق له نظير فيما أظن ، مع ما بذل من محاولات لانقاذ الحكومة الاسلامية فى الهند - التى لم يكن لها بديل فى ذلك الوقت - من الوضع المنهار ، و بعث روح جديدة فى جسمها ، ذلك أن سقوطها وضعفها كان يهدد بخطر الاضطراب الكبير خلقياً و سياسياً (١) .

و قام أبناؤه الموفقون الأفاضل (وفى مقدمتهم الشيخ عبد العزيز رحمه الله) بنشر علوم/الكتاب و السنة فى هذه البلاد و إنشاء ذوق لدراسة القرآن و تفهم

---

(١) لمزيد التفصيل راجع « المكاتيب السياسية » للبروفيسور خليق أحمد نظامى .

معانيه ، و خدمة جليلة للحديث الشريف و إصلاح العقائد و الأعمال و التقاليد .

كانت حركة الاصلاح و الجهاد و إحياء السنـــة و الخلافة الجليلة التى قادها الامامان الشهيدان أحمد بن عرفان الشهد (١٢٤٦هـ) و محمد إسماعيل الشهيـــد (١٢٤٦هـ) فى هذه القارة الهندية ، حلقة متينة ذهبية لهـــذه السلسلة الذهبية ، و قد وفقت هذه الحركة الجليلة لتقديم نماذج من السيرة الاسلامية و الحمية الدينية و تربية الانسان و صناعة الرجال ، جددت ذكرى القرون الأولى ، إن هذه الجماعة تابعت جهودها على جبهة الدعوة و الاصلاح الواسعة التى يتعذر نظيرها فى تاريخ العالم الاسلامى سابقاً (١)

ثم جاء عهد المدارس الدينية ، و تأسست مدرسة دار العـــلوم بديوبند ، و مدرسة مظاهر علوم بسهارنفور ، و دار العلوم ندوة العلماء فى لكهنؤ ، وغيرها من المدارس الاسلامية فى أنحاء البلاد التى قامت على أساس الكتاب والسنة ونشر تعاليمها (٢) و قد تم بجهود مؤسسى هـــذه المدارس الكبار و أفاضلها المخلصين و الراسخين فى العلم إصلاح العقائد و الأعمال على أوسع نطاق ، و نشأ ذوق دينى و غيرة إسلامية فى الناس ، و أسهم منهم عـــدد وجيه فى حركة تحرير البلاد و النشاطات العلمية و الأدبية ، و من أجلهم أخفق مبدأ فصل الدين عن الدولة (شأنه فى بعض البلدان الاسلامية) و لم تستغن جماهير هذه البلاد و الطبقـــة

---

(١) راجع للتفصيل « حركة الهند الاسلامية الأولى » للاستاذ المرحوم مسعود الندوى ، وكتاب « الامام الذى يوف حقه من الانصاف و الاعتراف » بقلم المؤلف .

(٢) للاطلاع على تفاصيل هذه المدارس راجع كتـاب المؤلف « المسلمون فى الهند » وهو استعراض تاريخى .

المثقفة عن قيادة العلماء و توجيهات أهل الدين فضلا عن الثورة ضدهم .

وبفضل جهود هؤلاء العلماء العلمية تمتعت الهند بمركزية دينية حتى إذا أراد أحد فى اليمن و المراكش و غيرهما من الدول الاسلامية أن يبرع فى الحديث الشريف ويتخرج فيه ، أم الهند ، وكذلك من أراد منهم أن يكمل تربيته الدينية والتزكية النفسية و يتدرج إلى مدارج الروحانية العليا توجه إلى الهند ، ظهر الشيخ خالد الرومى فى الجزء الشمالى للعراق و الشام الذى كان ضمن تركيا ، و أتم دراسته الدينية فى « شهرزور » و « دمشق » و لكنه لما أراد أن يطفئ ظمأه الروحى و يقوى إيمانه بأوامر الله و حقائقه الغيبية مثل الايمان بالبديهيات و نتائج الرياضى ، قصد الهند ، و وصل من بلده « شهرزور » إلى دهلى رأساً ، و نزل فى زاوية الشيخ غلام على (م١٢٤٠هـ) و لازمه حتى أذن له بعد تكميل دروسه الروحية بالعودة إلى بلده ، و أفاد الخلق بعلمه و أخلاقه و الحقائق الدينية فى بلدان العراق والشام و تركيا ، و نفخ فيها روحاً جديدة لا تزال لها آثارها .

إن حديثى هذا و إن كان محدوداً إلى ذكر حركات الهند الاصلاحية والتجديدية إلا أنه لا بد بالمناسبة من ذكر بعض الحركات الدينية التى قامت خارج الهند ، و خاصة حركة تطهير العقائد و دعوة الدين الخالص الكبرى التى قامت فى مركز الاسلام (الجزيرة العربية) و أسسها الشيخ الامام محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ - ١٢٠٦هـ) الذى عاصر شيخ الاسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى فى الهند (١) ، وقد كسبت دعوته هذه - نظراً لأسباب تاريخية وسياسية خاصة -

---

(١) شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب سن شيخ الاسلام أحمد بن عبد الرحيم تقريباً ، إذ أن الشيخ الدهلوى ولد فى (١١١٤هـ) والشيخ عبد الوهاب

نجاحاً لم يلقه كثير من الدعاة والمصلحين ، فقد نشأ نتيجة لها جيل مستقل ، ومملكة واسعة ، و مدرسة فكرية بلغ تأثيرها إلى أنحاء بعيدة ، وفى نفس هذا العصر ولد فى اليمن العلامة محمد بن على الشوكانى (١١٧٢ -١٢٥٠هـ) وفى «عسير» أحمد بن عبد الله بن إدريس الحسنى مؤسس السلسلة الادريسية ، و فى ليبيا السيد محمد بن على السنوسى (١٢٠٦ - ١٢٧٦هـ) (١) الذين قاموا فى بلادهم بمهمة إصلاح العقائد و التقاليد ، و نشر الكتاب و السنة ، وتربية الجهاد و السيرة النموذجية ، و يحاول مستشرق الغرب إثبات أن هؤلاء المصلحين كلهم من نتائج حركة ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتلاميذه مباشرة أو بواسطة ، ولكن لا دليل عليه ، إن العقلية الغربية عاجزة عن تفهم هذه الحقيقة ، وهى أن دراسة الكتاب والسنة الواعية أنجبت فى كل عهد شخصيات إصلاحية بارزة واجهت الأوضاع الفاسدة و الأفكار الزائغة بشجاعة ، و ستمتد هذه السلسلة إلى يوم القيامة ، و برز بعد ذلك بقليل إلى ساحة العمل والدعوة العلامة السيد جمال الدين الأفغانى (م ١٣١٤هـ - ١٨٩٧م) فنفخ فى صور الغيرة الاسلامية و وحدة العالم الاسلامى الذى ارتج به الوطن الاسلامى من مصر و الشام و تركيا ، لقد أسهم هو وتلميذه النجيب المفتى محمد عبده المصرى (م١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م) فى إيقاظ الوعى الفكرى لدى الشباب

☼ من مواليد (١١١٥هـ) و للاطلاع على أحوال الشيخ محمد بن عبد الوهاب و ترجمة حياته راجع كتاب « محمد بن عبد الوهاب ، مصلح مظلوم » للاستاذ المرحوم مسعود الندوى .

(١) المجاهد الشهير و المصلح الكبير سيدى أحمد الشريف السنوسى (الامام السنوسى) كان حفيد الشيخ محمد بن على السنوسى الذى أبلى فى حرب طرابلس و برقة ضد الطليان بلاء عظيماً ، و ظل يقاوم إلى مدة ١٣ عاماً -

المسلم القلق الذكى إسهاماً كبيراً (١) .

أما ما يتصل بالقرن الرابع عشر الهجرى فانه من وجهة نظر المسلمين قرن الانتصارات والاخفاقات ، و الأخطاء و تداركها ، وقرن بساطة الشعوب الاسلامية و اغترارها ، و قرن الوعى و اليقظة السياسية ، و قيام دول و حكومات مسلمة كثيرة ، و قرن حركات إسلامية قوية متعددة ، فان هـذا القرن يجمع من تنوع الحوادث و الوقائع و تناقضها ما يتعذر نظيره فى القرون الماضية

لما ابتدأ القرن الرابع عشر كانت الخلافة العثمانيـة موجودة بسعتها و قوتها ، وكانت ظلال الخلافة الاسلامية تظل المسلمين ، وكان السلطان عبد الحميد خان الثانى (١٣٢٧ - ١٢٩١هـ-١٩٠٩ - ١٨٧٦م) متمكناً من عرش الخلافة . الذى ظل هدفاً

ـ هذه القوة الكبرى بنجاح/كبير و قوة صامـدة ، لقد جمع بين السلاح و السبحة و السيف و المصحف فى وقت واحد ، كان يعتبر من كبـار المربين فى عصره ومن أولياء الله ، توفى بالمدينة المنورة فى عام (١٣٥١هـ ١٩٣٣م) وللاطلاع على التفاصيل راجع كتاب «حاضر العالم الاسلامى» للأمير شكيب أرسلان ج ٢ .

(١) منذ سنوات عديدة ماضية أصبحت كلتا الشخصيتين (الأستاذ والتلميذ) موضوع البحث و النقد ، و نشرت الجرائد و المجلات العربيـة مقالات و ألقيت محاضرات فى الندوات العلمية ضدهما ممـا قلل عظمة الشخصيتين و لم تعد كما كانت قبل اليوم بربع قرن ، و لـكن الواقع الذى لا ينكر أنهما مثلا دوراً رائعاً فى إعادة ثقة الشباب المسلم بكفاءة الاسلام وفكره ، ومن أراد التفصيل فليراجع كتاب المؤلف « الصراع بين الفكرة الاسلامية و الفكرة الغربية فى الأقطار الاسلامية » .

للنقد والطعن إلى أواسط القرن العشرين ، و إن المؤلفين الغربيين ركزوا أقلامهم على تشويه وجهه ، و لكن البحوث والدراسات التاريخية التى نشرتها بعض المجلات العربية و التركية الموقرة ، أثبتت فى ضوء مذكراته أنه كان خليفة ذا حميـة وغيرة إسلامية كبيرة ــ رغماً من بعض خصائصه الطبعية ومواضع الضعف التى قد تكون خصيصة للملكة الموروثة و رد فعل للخالفات الداخلية و الخارجية و المؤمرات التى دبرت ضده من كل جانب ــ لم تكن تستطيع القوى الغربية فى عهده أن تنجح فى توزيع تركيا واحتلال اليهود فى أى جزء من فلسطين ، و هو الذى رفض بازدراء كل ما تقدم به الوفد اليهودى الممتاز إليه من مساومات و رشى ، و قال لهم ، و قد حمل حفنة من تراب الأرض : أنتم تريدون منى بيت المقـدس ، و أنا لن أرضى بأعطائكم مثل هذه الحفنة من تراب فلسطين (١) ، وهو الذى أنشأ فى جسم الخلافة الاسلامية روحاً جديدة و فى العالم الاسلامى حماساً جديداً للوحدة الاسلامية و « الجامعة الاسلامية » .

إن الدولة العثمانيـة التى كانت تتشرف بتولى الحرمين الشريفين و شرف الخلافة الاسلامية كانت حصاراً حديدياً للقدسات الاسلامية والدول العربية ومنبع قوة وعزة الأمة الاسلامية ، أينما تكون . رغم ضعفها والفتن الداخلية والخارجية و المؤامرات المروعة التى كانت تحيط بها ، فلم تكن هذه المقدسات و الدول العربية ـ التى كان يتعلق بها حظ المسلمين وعزتهم ـ لكى توزع كمال اليتيم ، إن الدولة العثمانية كانت تمتد و تتسع فى بداية هـذا القرن إلى اليمن وعسير شرقاً ، و فى أوربا إلى أدرنة و ألبانيـا ، و فى إفريقيا إلى طرابلس و تونس و فزان غرباً ، و إلى

---

(١) حدثنى بذلك سماحة المفتى المرحوم محمد أمين الحسينى عدة مرات ، و هو من أوثق رواة هذا الموضوع .

أسوان و مصر ، و برقة جنوباً ، و إلى بلغاريا و دويلات بلقـــان ، طرابزون و أدريانوبل شمالا ، و كانت الدولة العثمانية تتضمن معظم أجزاء آسيا الصغرى كالشام (و ضمنها كانت فلسطين الحالية و لبنان و الأردن) و مصر ، والجزيرة العربية و العراق والقبرص ، و لم تكن أوربا كذلك بمعزل عن سلطة هذا « الرجل المريض » (١) ..

و لكن المسلمين لم يقدروا هذه النعمة ، التى كان الله سبحانه قد أنعم بها عليهم فى صورة الخلافة وإمبراطورية مسلمة واسعة ، إن عزل السلطان عبد الحميد خان فى عام ١٩٠٩م لم يكن حادثاً ذا شأن يغير مجرى التاريخ ، و يمكن أن يكون ذلك نتيجـــــة الأوضاع السياسية فى ذلك الوقت أو نتيجة المؤامرات و الدسائس ضد السلطان ، و قد تتابع على عرش الخلافة بعده السلطان رشاد و السلطان وحيد الدين خان والسلطان عبد المجيد ولكن الحادث المؤلم الذى نكب به العالم الاسلامى كله و أهين ، والذى خسر من أجله المسلمون بيت المقدس ، و كما يقول العلامة شبلى النعمانى : تطلع المستعمر نتيجة له إلى الحرم أيضاً » هو احتلال الاستعمار الغربى فى الدول الغربية كمصر والشام العظيمة الواسعة و العراق ، و الجزء الشمالى لافريقيا إما مباشرة أو بواسطة ، و يبدو أن مدة هذا العقاب (خاصة فيما يتعلق بالدول العربية فى آسيا الغربية) لم تنته بعد ، لقد كان إقداماً عجيباً ضد الأتراك تولاه العرب لما وقعوا فريسة مؤامرة الأقلية المسيحية الداهية التى كانت تقطن فى الدول العربية و وثقوا بمواعيد الاتحاديين الخداعة ، وسحروا بسحر القومية العربية بمناسبة الحرب الكونية الأولى فى عام ١٩١٤م ، و كان قائده شريف حسين ، شريف مكة ، الذى

---

(١) إن المؤلفين و السياسيين الأوربيين يسمون المملكة التركية والأمة التركية بالرجل المريض (Sick Man) .

رفع السلاح ضد الأتراك فى ١٠ يونيو ١٩١٦م ، و تحررت الشام و فلسطين من سلطة الأتراك كنتيجة له فى عام ١٩١٧ م و تمت السلطة البريطانيـــة على مصر ، و احتل الانجليز بيت المقدس فى ٩/ ديسمبر ١٩١٧م ، و فى أول أكتوبر لعـام ١٩١٨م دخل الأمير فيصل نجل شريف حسين والجنرال النبى منتصرين فى دمشق ، و اتجـــه الجنرال الفرنسى غورو إلى قبر فاتح بيت المقـــدس و عزة الاسلام السلطان صلاح الدين الأيوبى (رحمـه الله) و ضربه بحذائه قائلا : لقد انتصرنا اليوم يا صلاح الدين و دخلنا عقر دارك ، فالى متى تنام أنت ؟ و مع نهاية شهر أكتوبر ١٩١٨م كانت الجزيرة العربية و الشام و لبنان و العراق و دول العرب كلها قد خرجت من أيدى الأتراك و تم عليها تسلط الاتحاديين .

لقد كان العالم الاسلامى كله قلقاً بهذا الوضع والمسلمون مهانين ، ولكن مسلمى الهند أحسوا بهـــذا القلق أكثر من الجميع و تظاهروا باضطرابهم القلبى و الفكرى ، فى نفس هذا الوقت قامت حركة الخلافة فى الهند (التى كانت تعتبر أكبر حركة شبه دينية و شبه سياسية فى هذا القرن) وهزت الهند كلها بقيادة العلماء المسلمين وقادتهم كالشيخ عبـد البارى الفرنجى محلى ، و شيخ الهند مولانا محمود حسن الديوبندى ، و مولانا أبو الكلام آزاد ، و مولانا محمد على جوهر ، و مولانا شوكت على ، و مولانا ظفر على خان و غيرهم من العلماء و القادة الذين يندر نظيرهم فى العالم الاسلامى كله فى قوة الشخصية و الغيرة الاسلامية ، و الحماس الخطابى ، و بهذه المناسبـــة سالت قلوب المسلمين دماً ، و تفجر شعورهم الملى كالبركان ، إن هذه الحركة العملاقة أنشأت فى الهند كلها مسلمين وغيرهم ، وعياً سياساً وكراهية شديدة للسلطة الغربية و الحضارة الغربية ، حتى الزعيم غاندى إنما أيد هذه الحركة تأييـداً كلياً ، و قام مع زعمائها بجولات واسعة على مستوى عموم الهند .

و لكن لما أعلن مصطفى كمال باشا (كمال أتاتورك) فى ٣/ مارس ١٩٢٤م نهاية الخلافة مادت بالمسلمين الأرض و أظلمت عليهم الدنيا ، و فى هـذه المناسبة بالذات قال الشاعر محمد إقبال ما معناه .

« لقد شق التركى الجاهل خلعة الخلافة ، ما أشد المسلم سذاجة و عـدوه دهاءاً » .

كان هذا العصر مدهشاً مؤلماً للعالم الاسلامى ، و كان ماثلا فى شئ كثير بالنصف الأول من القرن السابع الهجرى الذى قضى فيه التتار على السلطة الاسلامية بالهجوم على بلدان العالم الاسلامى المركزية المخصبـة ثم باحتلالهم فيها ، و أبدلوا عزة المسلمين بالذل و العار ، ولكن ذلك لم يكن إلا غارة عسكرية لشعب شبـه متوحش لم يصمد فى وجهـه العالم الاسلامى المتمدن المترهل ، و لم تكن ترافقه فلسفة فكرية ، و حضارة جديدة و أفكار و قيم جـديدة ، و لكن غارة الأمم الغربيـة و بلدانها التى تمت فى الثلث الأول للقرن الرابع عشر الهجرى و أوائل القرن العشرين الميلادى اختلفت عنها كلياً فقد رافقتها فلسفات جديدة ، و نظام جديد للتعليم و التربيـة . و أفكار و قيم جديدة ، و جيش هائل جديد للالحـاد و التشكيك و مذهب جديد للمادية .

و مما زاد الطين بلة أن الثورة البلشفيـة حدثت فى مارس ١٩١٧م ، التى لم تكن تتناول التاريخ و الجغرافية و الخريطة السياسية بالتغيير و التحريف فقط ، و لم تكن مقصورة فى مجال الاقتصاد و السياسة فحسب إنما كانت تهـدم أسس العقيدة و العمل و الأصول و المبادىء و الأخلاق و المجتمع بل أساس الحيـاة الانسانية و الشعور الانسانى بأسره لكى تقيم على أنقاضه بناءاً جديداً ، و كانت تهدف الاسلام والمسلمين بأضرارها و ضرباتها أكثر من أى شئ ، أولئك المسلمين

الذين كانوا من اتبـاع و دعاة دين إيجابى واضح و خاتم للاديان كلها ، و الذين كان واجب « احتساب الكون » من بين واجباتهم الدينية ، وحقائق دينهم ، ومع الأسف لم يكن هناك من يشعر بهذا الخطر الداهم فى وقته و يقاومه إلا قليلا ، وإنهم لم يثبتوا فراستهم الايمانية التى كانت تتوسم أقل الأخطار قبلها ، ولقد شعر بخطر «البلشفية» شعوراً صحيحاً فى غربى العالم الاسلامى المؤمن المجاهد الغازى المرحوم أنور باشا وزير حرب تركيا سابقاً الذى أسس جبهة قوية ضد الشيوعيين بتنظيمه سكان تركستان ، وقد وقعت عدة اشتباكات بينه و بين البلشفويين فى الفترة بين ١٩٢١م ١٩٢٢م ، و فى ٤ أغسطس ١٩٢٢ شن غارة بمقربة من قرية « شكن » عـلى كتيبة من القوات الروسية و كان عددهم كبيراً فاستشهد فى هذه الغارة أنور باشا رحمه الله ، صادف ذلك يوم الجمعة ٧ من شهر ذى الحجة ١٣٤٠هـ على الأغلب (١)

هذه الثورة البلشفية لم تشمل دول آسيا المتوسطة الخصبة التاريخيـة ذات السكان المسلمين ، و تركستان الروسية و الصينية وحدها و لم تهددها بالردة الفكرية والحضارية فحسب بل جعلت أجيالها الصاعدة فى مواجهة الردة الايمانية والعقائدية ، وأصبحت تعيد تاريخ الأندلس الذى حدث فى القرن التاسع ، بل الواقع أن الدول العربية و مركز الاسلام ـ عدا هذه القارة التحتانية ـ أجبرت على مواجهة هذا الخطر الكبير و على الحكم بأن تكون مناصرة حليفة لها أو معارضة ضدها ، و قد بلغ الأمر ببعض الدول العربية (٢) إلى أنها لم تكتف باستيراد السلاح والصناعات

---

(١) للاطلاع على تفاصيل دوافع أنور باشا الاسلامية و خدماته الجليلة راجع مقالة الأمير شكيب أرسلان الرائعة (الذى كان يعرفه معرفـة شخصية) على حاشية كتابه « حاضر العالم الاسلامى » .

(٢) كالشام و العراق و اليمن الجنوبية .

الجديدة منها بل استوردت فلسفتها و أيدولوجيتها ، و تحمست فى حمايتها والدعوة إليها ، وبالأمس القريب تم لها الغزو العسكرى فى أفغانستان التى كانت تعتبر معدن الشجاعة الاسلامية والحمية الدينية ، والتى هيأت للهند فى كل عهد إداريين أكفاءاً ، و الحكام و القادة و العلماء الربانيين ، و كانت حصنها الخارجى و حارس حريتها الأمين . و هكذا وصلت هذه الفتنة العالمية إلى أبواب شبه القارة الهندية .

ومن خلال هذا الظلام الحالك الذى عم أواسط القرن الرابع عشرالهجرى حينما لم يكن يتراءى بريق أمل فى العالم الاسلامى من أقصاه إلى أقصاه بدت تباشير يقظة جديدة كما صورها إقبال فى شعره الذى معناه :

« جرى دم الحياة فى شرايين الشرق الميتة ، إنه لسر لا يستطيع أن يدركه سينا و الفارابى ، والواقع أن موجة الغرب الهائلة بعثت فى المسلم حياة من جديد ، و من تلاطم أمواج البحر ترتوى الأصداف ذات الدرر » .

نشأ فى العالم الاسلامى وعى سياسى بشكل بارز فى جانب و رفعت أعلام الحرية و الاستقلال ضد الاستعمار الأجنبى فى البلدان المتعددة ، مما أنتج استقلال مصر و الشام (بجميع أجزائهـــا) و العراق و ليبيا ، و تونس ، و الجزائر والمغرب ، و قامت فى أفريقيا دول مسلمة جديدة ، و تحررت إندونيسيا وماليزيا وتكونت مملكة باكستان الاسلامية العظيمة ، وأسهم مسلمو الهند فى حرب التحرير و قدموا فيها تضحيات غاليـة كانت دليلا على وعيهم السياسى وحبهم للوطن ، حتى برزت على خارطة العالم السياسى أكثر من ٤٥ دولة مسلمـة مستقلة ، ٢٤ منها تتمتع بعضوية الأمم المتحدة و تخفق أعلامها على مبنى الأمم المتحـدة الشامخ كما يتمتع المسلمون بوزن خاص فى الأمم المتحدة ، و فى المشكلات والمذاكرات العالمية ، و فى كفـــة ميزان العالم السياسى أيضاً ، و لو أن هؤلاء المسلمين نضج

وعيهم السياسى و نشأ فيهم شعور بقوتهم السياسية و تمت لهم الوحدة، لاستطاعوا أن يكفوا ألواناً من الجور والظلم ، وساعدوا كثيراً من الشعوب المضطهدة والدول الضعيفة ، ولو أن الله سبحانه رزقهم قادة مخلصين متعففين ، أو أكرم زعماء حكوماتهم بالتوفيق والهداية ، لاستطاعوا أن يؤسسوا دولة إسلامية صحيحة فى بلدانهم الاسلامية و مناطق نفوذهم ، وينفذوا النظام الشرعى ويطبقوا القوانين الشرعية ، واستطاعوا أن يقيموا فى حدود دولهم و أقطارهم مجتمعاً إسلامياً نموذجياً ، وبيئة فاضلة خلقية وروحانية ذات طاعة ومسئولية ، لا يوجد لها أمثلة إلا فى صفحات التاريخ بمسافة قرون ، و قطع منها العالم أمله بتاتاً وحتى المسلمين أنفسهم أغفلوها و استغنوا عنها ، وهى تكفى اليوم أيضاً لكى تنبه الفكر الانسانى وتجبر المعسكرين الشرقى والغربى على على التفكير فى القضية ، و أن تمهد لنشر الاسلام طريقاً جديداً .

كذلك إذا عزم المسلمون على استعمال وزنهم و أهميتهم السياسية فى محلها وأحسوا بمسئولياتهم و واجباتهم إحساساً كاملا لاستطاعوا أن ينقذوا تلك الانسانية التى يمتلك مصيرها المعسكران الشرقى والغربى بزعم منهما ، و إنهم فى الهند كذلك لا يستطيعون أن يصونوا حقوقهم المالية فحسب بذكائهم و تضامنهم و قوتهم الخلقية بل يتمكنون من منحها قيادة خلقية و روحية مع إنقاذها من ذلك الدمار العام الذي يخطو إليها بخطوات حثيثة من أجل القلق السياسى المتزايد وأزمة الأخلاق .

هذا و قد نشأت فى العالم الاسلامى حركات ثورية فكرية و إصلاحية على نطاق أوسع و أقوى يتعذر وجود نظيرها فى سعتها و قوتها فى الأمس القريب ، و من مزايا هذه الحركات الباعثة على الأمل أنها تصلح للتأثير فى طبقة الخاصة و الأذكياء (Intellectuals) و توفير معلومات علمية واضحة جذابة لاقناعها وإعادة ثقتها بالاسلام فى جانب ، و فى جانب آخر فان نطاقها فوق الحدود الجغرافية

وهى تغطى مساحة واسعة فى العالم الاسلامى ، كما أن لها جانباً لامعاً آخر يسترعى الانتباه و هو أن الشباب المثقف لأول مرة فى التاريخ لم تعجب بها فحسب بل إنها تحمست فى الدعوة إليها و الانتصار لها أكثر بالنسبة من سبقهم من الشباب المسلم ، و نستطيع أن نضرب لذلك مثلا بحركة « الاخوان المسلمون » فى مصر ، و الحركة النورية فى تركيا ، و حزب التحرير فى الأردن و فلسطين ، و حزب ماشومى فى إندونيسيا ، و دعوة التبليغ العالمية فى القارة الهندية والجماعة الاسلامية فيها ، و يمكن أن لا يوافقها أحد مأة فى المأة إلا أنه لا يمكن أن ينكر ما لها من التأثير و السعة و القبول ، كما أن لشعر محمد إقبال القوى وفكره المشرق (الذى يفوق فى القوة والتأثير والشمول بين الأدب الاسلامى وشعره ، فى القرون السابقة) سهماً كبيراً فى بعث الايمان و الهمة و الاباء بين الشباب المسلم و الطبقة المثقفة .

لقد أظل القرن الخامس عشر الهجرى العالم كله ، و إن الأمة الاسلامية والعالم الاسلامى إن لم يكن لهما حظ فى هذا التراث العظيم وهذه الثروة الهائلة من العقيدة والفكر و العلم والسياسة و الطبيعة و الانسان ، و هذه الحركات القومية والدول المستقلة الكثيرة ، والممالك الواسعة التى أشرنا إليها بايجاز لم يكن هناك مبرر لليأس ولا داع إلى التشاوم ، لأن لديهما صحيفة الله القرآن الكريم ، و رسالته الأخيرة الخالدة الاسلام ، اللذين ينفخان فى جسم الأمة الميت و قلبه الهامد روحاً من حياة جديدة فى كل زمان ، و يأتيان بالعجائب و المعجزات .

ثم إن المسلمين هم وحدهم موئل آمال الانسانية فى هذا العصر ، وحرسة رسالة الله الأخيرة و أمناء البشرية ، و لعل هذا القرن يكون نقطة تحول حاسمة ذات تأثير عميق فى العالم البشرى كله ، فلا ينبغى أن نيأس من روح الله ، فان شقاء الانسانية وذلة الانسان بالغان إلى آخر المدى ، الساعة التى تتحرك فيها رحمة الله و غيرة الرب ، و يواجه فيها العالم ثورة كبيرة .

« إن الحضارة الغربية أشرفت على الانهيار ، و آذنت بالأفول و الزوال ، إنها لا تعيش ولا تواصل سيرها بمجرد قوتها الذاتية ، و جدارتها للحياة و البقاء

بل لأنها ليست فى هذا المجال ـ من تعاسة الحظ ـ حضارة تحل محلها وتسد فراغها ، إن جميع الحضارات المعاصرة و القيادة الحديثة اليوم لا تعـدو نوعين ، إما هى مقلدة جامدة و صورة باهتة للحضارة الغربية ، وإما هى ضعيفة هزيلة ، مريضة سقيمة ، منسحبة منهزمة ، لا تستطيع أن تواجه هذه الحضارة أو تقف معها جنباً إلى جنب ، فاذا قامت هذه الدول الاسلامية ، والعالم الاسلامى بصورة عامة لسد هذا الفراغ الذى سيحدث بعد نهاية هـذه الحضارة و انسحابها عن مسرح القيـادة رد إليه منصب قيادة الجنس البشرى ، و توجيه الشعوب المعاصرة مرة ثانيـة ، المنصب الذى لايفوض إلا إلى أمة فتية قوية أبية تحمل كل عناصر البقاء والاستمرار و التقدم و الازدهار ! سنة الله فى الأرض « و لن تجد لسنة الله تبديلا » .

فلينظر هؤلاء القادة و الحكام ما هو أولى لهم و أجدر بشأنهم ، التمسك بأذيال الغرب و الوقوف على بابه كالشحاذين ، أم منصب قيادة الانسانيـة و هداية الشعوب الضالة التى لا كرامة ـ بعد النبوة ـ مثل هذه الكرامة ؟ ذلك المنصب العالى السامى الذى تتلاشى عنده جميع هـذه الألقاب و الشارات ، و الشعارات والهتافات والمناصب الرفيعة ، و الحياة الناعمة المريحة و الاغراءات المادية الجنسية ، إنها سلعة غالية لا يخسر بها المشترى ، و لو ضحى بنفسه مأة مرة (١) » .

ويحلولى أن اختم هذا الاستعراض السريع وهذه الرسالة المخلصة بأبيات للشاعر الاسلامى محمد إقبال ، دافقة بالقوة والروح ، وقد خاطب فيها المسلم فقال مامعناه :

« قد آن لِبانى البيت الحرام و حامل رسالة الاسلام أن يقوم و ينهض من غفلتـه و يصلح ما أفسده الأوربيون ، فانه أمين رسالة الاسلام و قاعدة ملوك العالم ، و هو أوسع من الزمان و المكان ، فلينهض من حضيض الأوهام إلى سمو الايمان و لينفض من عينه نوم السبات و ليعد إلى بناء العالم من جديد » .

---

(١) « الصراع بين الفكرة الاسلامية و الفكرة الغربية فى الاقطار الاسلامية » للمؤلف .